

تطور نمو الأبناء ومتطلبات المراحل

الفصل الخامس

البناء المتكامل للشخصية

وصلتها بمفهوم الذات

عند الأبناء

oboeikan.com

أولاً: إلى أي مدى يمكن أن يساهم إشباع هذه الحاجات في إكساب الأبناء شخصية متكاملة Integrated Personality، أو كما يطلق عليها أيضاً «الشخصية المتسقة»؟

ثانياً: ما علاقة مفهوم الذات بالشخصية المتكاملة؟

بعد أن عرفنا حاجات النمو في مرحلتي الطفولة والمراهقة، فإن الإجابة على هذين السؤالين تستدعي معرفة طبيعة الشخصية بوجه عام ومكوناتها، وكذلك معرفة ماذا يقصد بالشخصية المتكاملة وما هي سماتها والعوامل المختلفة التي تؤثر في تكوينها.

تعريف الشخصية بوجه عام

يتساءل الدكتور شعبان علي حسين (٢٠٠٢) حول مشكلة تعريف الشخصية، فيقول: نحن أفراد، نتعامل مع العالم بطرقنا الفريدة، ما الذي يجعلنا مختلفين عن بعضنا البعض؟ كيف يمكننا تحديد ووصف هذه الاختلافات ومقارنة الأفراد بعضهم ببعض؟

ويجيب: «يستخدم مصطلح الشخصية لوصف الصفات اللافتة للنظر والاعتيادية لسلوك شخص ما والتي تحدد طريقة تعامل الفرد مع الحياة فمعظمنا يعرف أشخاص لهم خصائص مستقرة نسبياً مثل التأخر عن الاجتماعات، العدوانية أمام النقد الذي يوجه إليهم، الهدوء والالتزان، الانطواء وغيرهامما يجعلنا قادرين على التنبؤ بهذه السلوكيات. وأنماط الخصائص هذه تتسم بأنها مستقرة وتحمل الزمن وليست خصائص عرضية أو عشوائية، كذلك فإن هذه الخصائص مميزة حيث تهتم بنمط الاستعدادات والسلوكيات والخصائص الاستثنائية للفرد ولا نعني بتلك الخصائص التي يمتلكها كل أو معظم الناس الآخرين» (ص ٥٢).

فقد تكون بعض هذه الخصائص والاستعدادات الشخصية قوية ومتكررة وقد تكون ضعيفة وغير متكررة، وما هو مدعاة لاهتمام من هذه الشخصية هو كل ما تفرده به ويميزها عن غيرها وقوي وثابت فيها (نفس المرجع ونفس الصفحة).

وهناك الكثير من التعريفات للشخصية نذكر بعض منها:

يشير محمد إفرخاس إلى عدة تعريفات للشخصية كما عرفها بعض المتخصصين، نذكر بعضها فيما يلي:

- الشخصية كما يعرفها جوردون البورت هي: « التنظيم الدينامي داخل الفرد لتلك الأجهزة النفسية التي تحدد طابعه الخاص في توافقه لبيئته ».

- ويعرف إيزنك الشخصية على أنها « هي المجموع الكلي لأنماط السلوك الفعلية أو الكامنة لدى الكائن، ونظرا لأنها تتحدد بالوراثة فإنها تنبعث وتتطور من خلال التفاعل الوظيفي لأربعة قطاعات رئيسية، تتظم فيها تلك الأنماط السلوكية: القطاع المعرفي (الذكاء)، القطاع النزوعي (الخلق)، القطاع الوجداني (المزاج)، والقطاع البدني (التكوين) ».

- ويعرفها واطسن بأنها: « مجموع الأنشطة التي يمكن اكتشافها عن طريق الملاحظة الفعلية للسلوك لفترة كافية بقدر الإمكان ... وبمعنى آخر: فإن الشخصية هي النتاج النهائي لأنظمة عاداتنا ».

- ويقرر كنف أن الشخصية « هي أسلوب التوافق العادي الذي يتخذه الفرد بين دوافعه الذاتية المركزية ومطالب البيئة » (٢٠١١: ٣١).

وينظر فرويد للشخصية كمكون لثلاثة مستويات وهي: الهوى والأنا والأنا الأعلى، ولكل مستوى من هذه المستويات وظيفة معينة. فيختص المستوى الأول « الهو » id بالقدرة الغريزية، ويتألف من الموروثات والغرائز الفطرية للإنسان،

فهو مخزون الدوافع واستجاباتها الفطرية وهو لاشعوري، لا منطقي، لا خلقي، ولا يقيم وزنا للمثل والمعايير يتبع مبدأ اللذة Pleasure Principle التي تتطلب الإشباع الفوري للرغبات الملحة دون اعتبار للنتائج.

أما «الأنا ego»، فهو المستوى الثاني من الشخصية وهو الجانب العاقل فيها والذي يحاول دائما أن يجد طرقا مشروعة لإشباع حاجات الهو غير الواقعية، ويعتبر حلقة الوصل بين حياة الواقع والاشعور وهو منطقي، خلقي ويخضع لمبدأ الواقع ويهتم بالمعايير الاجتماعية ويتكون تدريجيا من تفاعل الفرد مع بيئته، ويتأثر في تكوينه بالخبرات والاتجاهات التي يتعلمها الفرد.

أما المستوى الثالث للشخصية عند فرويد فيسميها «الأنا الأعلى super ego» وهو المكون الثالث للشخصية ويمثل جانبها الخلقي فهو مثالي، ويمثل الضمير الذي يقيم سلوك الفرد والآخرين أخلاقيا واجتماعيا، وينمو الأنا الأعلى مع نمو الفرد وامتناله مع قيم المجتمع الذي يعيش فيه بما فيه من معايير اجتماعية يتعلمها في البداية من الوالدين والأخوة وال كبار في المجتمع. ولكي يتحقق للفرد أكبر قدر من التوازن والاستقرار النفسي، لا بد أن تعمل هذه المكونات للشخصية (الهو والأنا والأنا الأعلى) في انسجام وتناغم بعضها مع بعض، بحيث لا يطغى جانبها منها على آخر (القاسمي، مهرة ٢٠١٠: ٦٤).

وإذا نظرنا إلى هذا التعريف فإننا نجد أن الشخصية بالنسبة لفرويد تتكون من خصائص بيولوجية (المستوى الأول) واجتماعية (المستوى الثاني) وأخلاقية (المستوى الثالث)، والتي تجعل من الفرد ذاتا يتميز عن غيره.

وتعرف الدكتورة كليز فهيم، الشخصية، على أنها «هي ذلك المفهوم الذي يصف الفرد من حيث هو وحدة متكاملة من الصفات الجسمية والعقلية والاجتماعية في المواقف المختلفة، والتي تميزه عن غيره من الأفراد تميزا

الشخصية المتكاملة

عرفنا، أعلاه، أن الشخصية الإنسانية قد اشتملت على: دوافع الفرد وعواطفه وميوله واهتماماته، وسماته الحقيقية وآراءه، ومعتقداته واتجاهاته، وعندما تكتسب الشخصية مقومات تتكامل فيما بينها وتتسق لتضفي على الشخص صفات أكثر جاذبية يساهم في خلق جو اجتماعي فعال، يمكن الإشارة لمثل هذه الشخصية بالشخصية المتكاملة.

ويعرف الدكتور أسعد رزوق (١٩٨٧) الشخصية المتكاملة على أنها: « شخصية تنطوي على اتساق في السمات وتنم عن صفات تكمل الصفة الواحدة منها الأخرى، بحيث يتمكن صاحبها من ممارسة السلوك الناجح مع الاقتصاد في المجهود، وتتصافر فيها مختلف العناصر بغية تحقيق الانسجام النفسي والوصول إلى التكامل في شتى مجالات الشعور والإرادة والنشاط الحركي (ص ١٤٩).

ويعرف الدكتور أحمد زكي بدوي الشخصية المتكاملة، بأنها « نظام متكامل من مجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والإدراكية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزاً بينا، وكما تبدو للناس أثناء التعامل اليومي التي تقتضيه الحياة الاجتماعية» (٣١١: ١٩٧٨).

ويعرفها الدكتور عادل الأشول (٢٠٠٨) على أنها « بنية وظيفية مركبة من المكونات الجسمية التشريحية والعقلية المعرفية والانفعالية والوجدانية والاجتماعية في نظام متكامل يحدد أسلوب الفرد في الحياة وفي مواجهة المواقف المختلفة» (ص ٤٢٤).

ومهما اختلفت تعريفات الشخصية فيما بينها، فإن أية محاولة لفهم الشخصية

ودراستها يجب أن تركز على فهم الوسط الاجتماعي المحيط بالفرد بنفس القدر الذي يعطى للفرد من اهتمام لمحاولة فهمه والتعرف على دوافعه.

والمقصود بالوسط الاجتماعي هو ذلك المجتمع الذي يعيش فيه الفرد بمؤسساته الأسرية والمدرسية ورفاق اللعب وغيره، كذلك لا بد من إعطاء البعد الثقافي في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد الاهتمام الكافي وذلك إذا ما أريد معرفة شخصية الفرد معرفة حقيقية، وما يشوب تلك الشخصية من التوتر وعدم الاتساق.

صفات الشخصية المتكاملة

تشير الدكتورة كليرفهيم (١٠٨: ٢٠٠٧-٢-) إلى من يتصف بالشخصية المتكاملة على أنه: «المواطن الصالح» رجلاً كان أو امرأة، وهو من يتصف بعدة صفات نوجزها فيما يلي:

- هو الشخص الذي تكون لديه الشجاعة لمواجهة الأمور الصعبة والمشكلات، والمقدرة على إيجاد الحلول المناسبة لها بدلا من التهرب منها أو الاتكال على الغير في حلها.
- هو الشخص الذي برغم المفاجآت والمحن التي تواجهه إلا أنه «يتقن فن الحياة»، فيستطيع أن يحيا في انسجام مع نفسه ومع أفراد مجتمعه.
- هو الشخص الذي يستفيد من أزماته فيخرج منها بأقوى مما كان عليه، كما تذهب فلسفة نيتشه «كل ما لم يقتلني يقويني».
- هو الشخص الذي يلجأ للتفاهم في تعامله مع الغير بدلا من المشاحنة، ويعرف أن الكمال في الحياة هو في الإخفاق ثم في النجاح، وفي الخطأ ثم الصواب، وفي الخطر ثم النجاة.

- هو الشخص الذي يعرف قدر نفسه، فيسعى جاهداً لأن يجعل يومه أقرب إلى الكمال من أمسه، مصداقاً للحكمة القائلة: « ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط ». فمثل هذا الشخص يستمد صفاءه ورضاه من الاهتمام بهموم الغير، والعمل على توفير الراحة لهم.

- هو الشخص الذي لديه إيمان قوي بأن السعادة تنبع من الإحساس بالرضا عن عمل يؤديه الشخص على أكمل وجه.

- هو الشخص المهذب، ذو الخلق الحميد في حياته الخاصة والعامة.

- هو الشخص الذي يتمتع بذهن صاف وسرعة بديهة، متميزاً بروح الرضا والمرح.

- هو الشخص الطموح، سريع البديهة، يتمتع بالحس الفكاهي، حيث تدل الفكاهة على صحة العقل والنفس.

- هو الشخص الذي لديه يقين أن الملابس والمظهر الشخصي أمران مهمان ولكن صاحبهما أكثر أهمية.

- هو الشخص الذي يتعرف على عيوبه بنفسه لكي يتجنبها ويصلحها، فيحافظ بذلك على علاقته مع الآخرين.

تلك هي صفات الشخصية المتكاملة التي لا بد أن يتصف بها المواطن الصالح كما تذهب الدكتورة كليز فهميم.

ولتكامل الشخصية علاقة وثيقة بعملية النمو وطبيعتها المعرفية والانفعالية والاجتماعية، وهي عملية تغير وتوجيه التغير، تتصل بمراحل تطور الأبناء وما يتلقونه من الرعاية والاهتمام من الأسرة والمدرسة والمؤسسات التربوية المختلفة، وبقدر ما يتلقاه الأبناء من رعاية يتحقق الهدف الأعظم الذي تصبو إلى

تحقيقه أي جماعة إنسانية، وذلك هو تكوين الشخصية الناضجة المتكاملة (الأشول، عادل ٤١٤: ٢٠٠٨).

علاقة الشخصية المتكاملة بمفهوم الذات

جدير بالذكر، أنه قد تستعمل كلمة الذات كمرادف لكلمة الشخصية، ويعني ذلك أن للشخص كيانه الخاص وله صفات وسمات وخصائص تميزه عن غيره، وهذا تأكيد لذاته ونفي وجوده في الآخر، فالآخر ليس هو، وهو ليس الآخر، فكلاهما مختلفان في الصفات والسمات والخصائص. وذلك رغم تشابهما في التكوين والبنية والخلق الإنساني. فالشخصية إذاً، هي ذلك التنظيم لسمات وخصائص ودوافع الفرد النفسية والفسولوجية والجسمية الذي يميزه عن غيره، والذي بإمكانه أن يكفل للفرد توافقه النفسي وتكيفه الاجتماعي (القاسمي، مهرة سالم ٣٣: ٢٠١٠).

ولك علاقة الشخصية المتكاملة بالذات تنبع من مسلمة مؤداها أن الشخصية المتكاملة تنحو للاستقلالية والتكامل وتغير، ليس فقط بالتعلم وإنما بتعديل مفهوم الفرد لذاته وهدف عملية تكامل الشخصية هو تناسق الذات، وبناء على ذلك فإن جميع أنماط السلوك الإنساني تنبع من إطار داخلي تحدده صورة الذات ومفهومها، وهنا تكمن مدى العلاقة بين مفهوم الذات والشخصية المتكاملة (عكاشة، محمود فتحي ١٩٩٠؛ الشامسي، عائشة جاسم ٢٠٠٥).

مفهوم الذات

مع بدايات القرن العشرين بدأ علم النفس يولي اهتماما خاصا للبرامج التربوية، معتمدا في نظريته على الأسس التكاملية الشمولية لجميع المتغيرات والمحددات المعرفية والوجدانية والاجتماعية، مركزا على أهمية دور الاعتقادات الذاتية للإنسان على مجريات حياته.

وفي هذا الصدد يشير دويدار (١٩٩٢) إلى أن وليم جيمس هو أول من تحدث عن الذات وأبعادها وأهميتها في فهم السلوك الإنساني، وفي السنوات الأخيرة أخذ يحتل مفهوم الذات موقعا مهما في الأبحاث والدراسات النفسية التربوية الحديثة بوصفه بعدا مهما من أبعاد الشخصية، إذ تم تناوله من وجهات نظر متعددة كمتغير مرتبط بمتغيرات أخرى على جانب من الأهمية.

وقد حقق مفهوم الذات تقدما في ميادين علم النفس منذ ظهور نظرية روجرز عن الذات ١٩٥١ - ١٩٦١، والتي جاء فيها أن الذات هي المحور الرئيسي للخبرة التي تحدد شخصية الفرد، ويتحدد على أساسها السلوك المميز له، ففكرنا عن ذواتنا هي التي تحدد نوع شخصيتنا، وتحدد كيفية تصرفنا تجاه المواقف والأفراد حتى كيفية إدراكنا لهذه المواقف أو هؤلاء الأفراد، ويظهر مفهوم الذات في تقرير الفرد عن نفسه (عكاشة، محمود فتحي ١٩٩٠؛ الشامسي، عائشة جاسم ٢٠٠٥) وهذه النظرية ترى أن الذات تتكون وتتحقق من خلال النمو الإيجابي الذي يتمثل في بعض العناصر مثل صفات الفرد وقدراته، والمفاهيم التي يكونها بداخله نحو ذاته والآخرين، والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، وكذلك خبراته عن الناس المحيطين به، ولذا فإن فهم الإنسان لذاته له أثر كبير في سلوكه، وقد أشار دويدار (١٩٩٢) إلى أن روجرز نظر إلى السلوك على أنه نتيجة للأحداث المدركة، وبالتالي فإن إدراكات الفرد تكون محددات لسلوكه التي سيستجيب بها إزاء هذه المدركات (الشامسي، عائشة جاسم ٢٠٠٥:٢٠).

تعريف مفهوم الذات

ويعرف كل من أدلر وتون (١٩٩٠) Adler and Towne يعرف مفهوم الذات على أنه مجموعة الإدراكات الثابتة نسبيا التي يحملها الفرد عن نفسه، ويرى ديكلو (٢٠٠٣) أن مفهوم الذات «مجموعة المنظورات والاعتقادات التي يمتلكها شخص عن ذاته، بالإضافة إلى المواقف الناتجة عنها».

ويعرف الدكتور زهران مفهوم الذات على أنه « تكوين معرفي منظم موحد ومتعلم للمدرجات الشعورية والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات، يبلوره الفرد ويعتبره تعريفا نفسيا لذاته. ويتكون مفهوم الذات من أفكار الفرد الذاتية المنسقة المحددة الأبعاد عن العناصر المختلفة لكيونته الداخلية والخرجية» (٢٠٠٣:١٣٨).

ويمكن القول بأن مفهوم الذات ينظر إليه على أنه جزء لا يتجزأ من تطور نظام الذات، والتي تشتمل أيضا على: فعالية الذات وتقدير الذات، وفيما يلي تجدر الإشارة إلى الخطوط الدقيقة التي تفصل مفهوم الذات عن كل من فعالية الذات وتقدير الذات.

مفهوم الذات مقابل فعالية الذات

تشير بايرن (١٩٩٦) Byrne إلى أن كلا من مفهوم الذات وفعالية الذات يعبران عن مظاهر مختلفة، لذا لا يمكن الأخذ بهما تحت أي حال كمترادفين، ويقصد بالفعالية الذاتية « تقييم محيط محدد للكفاية في أداء مهمة محددة، والحكم بقابلية الفرد لإحراز سلوك محدد في حالات محددة ».

ولكن عندما نتحدث عن مفهوم الذات بصورة عامة فنحن لا نصف سلوك الفرد بصورة محددة، وإنما نتحدث عن عموميات وإدراكات عامة، وهنا تكمن الحاجة إلى تقسيم مفهوم الذات إلى أبعاد قد ترتبط في نهايتها بسلوكيات وأوضاع محددة كما هو في التنظيم الهرمي، وفي سبيل الربط وإيجاد علاقة مشتركة بين المصطلحين فإن مفهوم الذات ما هو إلا اعتقادات تجسد تقييم الذات المرتبط مع كفاية الشخص المدركة المستوعبة، وتأتي أحكام مفهوم الذات أكثر عمومية مقارنة مع فعالية الذات، فعلى سبيل المثال: فقرة اختبار مفهوم الذات في مادة محددة يتطلب الاستجابة لرد الفعل للحالة « أنا طالب جيد في العلوم » بينما فقرة

فعالية الذات تتطلب رد الفعل للحالة « أنا أستطيع حل هذه المسألة المحددة في العلوم ».

وفي أدلر وتون (١٩٩٠) Adler and Towne أن الأبحاث أجمعت على أننا لا نولد بمفهوم الذات، فبعد الولادة بقليل يبدأ الأطفال باكتساب مفهوم الذات عن طريق استشارة البيئة المحيطة، ففي حوالي الستة أو السبعة الأشهر الأولى يبدأ الطفل بتنظيم مفهوم الذات من المحيط الاجتماعي.

ويؤكد على ذلك أحمد عكاشة (١٩٩٠) إذ يشير إلى أن مفهوم الذات ينمو من احتكاك الفرد بالبيئة وخاصة البيئة الاجتماعية، أي من علاقة الفرد الديناميكية بالعالم الخارجي، كما يتحدد بناء على إدراك الفرد لصفة أو صفات عامة يمكن أن تستند إليه بكونه قوة متفاعلة مع القوى الأخرى في البيئة المحيطة، أي بكونه مصدرا للسلوك في البيئة التي يعيش فيها.

وأوضح هورمث (١٩٩٠) أن الاستقرار والتغير في مفهوم الذات يتطور خلال دورة الحياة، ودراسة العمليات التي تخضع مفهوم الذات للتغير تؤمن معلومات حول مفهوم الذات، وقد حدد منداجليو (٢٠٠٢) Mendaglio ثلاثة عوامل تساهم في تطوير مفهوم الذات لدى الفرد وهي: التقديرات المنعكسة، والمقارنة الاجتماعية، والإسناد (العزو)، وسنعرض فيما يلي بشيء من الإيجاز كل عامل من هذه العوامل.

التقديرات المنعكسة

ويرى هورمث (١٩٩٠) Hormuth أن الدور الذي يلعبه الآخرون في تكوين مفهوم الذات هو ردود الفعل إزاء تصرفات الشخص سواء كانت لفظية أو غير لفظية، إذ تؤمن ردود فعل الآخرين مرآة للذات يطور من خلالها الشخص ذاته، وبذلك تكون توقعات الآخرين وردود الفعل تجاه تصرفات الشخص عملية مهمة

قد تساهم في استقرار أو تغير الذات، وبطريقة أكثر تحديداً، فإن الذات يمكن أن توصف كتنظيم داخلي لقوانين خارجية في السلوك أو التعامل.

ويؤكد ديكلو (٢٠٠٣) على أن معرفة الذات تنمو عند الطفل بفضل تفاعلاته مع الآخرين، وهي تتأثر بشكل كبير بالأشخاص الذين يلتفون حوله والذين يحكم بأنهم مهمون في نظره، والطفل يحقق بحضور هؤلاء الأشخاص عدداً كبيراً من النشاطات الجسدية، والاجتماعية، والفكرية التي ينمي من خلالها مهاراته التي يعيها شيئاً فشيئاً.

وأشار منداجليو (Mendaglio) (٢٠٠٢) إلى أن مفهوم الذات يتأثر بالتفاعل الاجتماعي مع الأشخاص ذوي الأهمية بالنسبة للطفل، والذين يتغيرون خلال مراحل النمو المختلفة، فبصورة أولية يتشكل مفهوم الذات بواسطة التفاعل اليومي بين الطفل والوالدين، ثم يبرز في المرحلة التالية دور المعلمين، وبعد ذلك وفي سن المراهقة بالذات يظهر دور الأقران بصورة أكبر، والممارسات الاجتماعية لها تأثير مباشر على تطور مفهوم الذات، وبالذات جودة العلاقات بين الآباء- الأطفال، الأطفال- المعلمين، الأقران- الأطفال، ولعل المهم هنا التغذية الراجعة التي نتقبلها من الآخرين إذ هي الجانب ذو القيمة في تكوين مفهوم الذات.

إن الدور الذي تلعبه التقديرات المنعكسة في تطور مفهوم الذات يبرز بصورة أفضل في محيط التطور المعرفي، إذ أن مفهوم الذات يبرز وينمو عندما يأخذ الشخص بعين الاعتبار التغذية الراجعة من الأشخاص ذوي الأهمية، إذ تتفاعل القدرة المعرفية للشخص مع التغذية الراجعة، ومع زيادة النضج المعرفي فإن الأشخاص يكون لديهم فرصة أعظم لقبول و/ أو تحويل التغذية الراجعة التي يؤمنها التفاعل مع الآخرين، فالأطفال صغار السن الأقل نضجاً يكونون أكثر ميلاً

لقبول التغذية الراجعة، بينما المراهقون الأكبر سنا يميلون إلى الاستخفاف بالتغذية الراجعة من الآخرين.

وقد أشار ديكلو (٢٠٠٣) إلى نفس الفكرة، وهي أن الطفل خلال سنوات حياته الأولى يتعلم الابتعاد تدريجيا عن الأشخاص الذين يتمتعون بأهمية في نظره، ويبدأ في الاختلاف عنهم، وهو ما يسمى بالتدرج الناشئ في الانسلاخ والافراد، الذي يبدأ الطفل من بعده بمعرفة أفضل لذاته وبناء مفهوم الذات الذي سوف يكون أساسا لهويته، فيكتشف نفسه مخلوقا فريدا في العالم ويمتلك عناصر أساسية لمعرفة الذات التي تتحول فيما بعد إلى عاطفة الهوية التي سيكتمل بناؤها في سن المراهقة.

ويرى محمود فتحي عكاشة (١٩٩٠) أن الأسرة مسؤولة عن تكوين مفهوم الطفل عن ذاته وتقييمه وتقديره لها، بما تظهره من اتجاهات نحوه وما تقدمه من إشباع للحاجات النفسية الأساسية، وبما تجعله يمر به من مواقف النجاح أو الفشل، وما يستشعره من قبول أو رفض، كما يؤكد على دور المدرسة، فهي تحتل المرتبة الثانية بعد البيت بالنسبة للعديد من الأطفال في تأثيرها على تكوين تصور الطفل عن نفسه، وتكوين اتجاهات نحو قبول ذاته أو رفضها.

المقارنة الاجتماعية

بين ديكلو (٢٠٠٣) أن كل طفل يمتلك عند ولادته مميزات خاصة، ولكل منهم ملامح وطباع خاصة به أيضا، ويعبر بطريقته عن احتياجاته، ويبرهن بردود فعله وأعماله وحتى عواطفه على أنه مختلف عن الآخرين، ويتعرف الطفل بملاحظته الفروق بينه وبين الآخرين على ما هو عليه، وينمو شعوره بالهوية الشخصية (انظر: الشامسي، عائشة جاسم ٢٠٠٥).

ويرى الفيلسوف الاجتماعي جورج ميد أن مفهوم الذات عند الطفل يأتي عن

طريق استحسان الآخرين تجاهه، إلا أن تلقي الطفل لهذا الاستحسان يصعب تحقيقه قبل نمو قابليته الإدراكية. لذلك فإن طفل المدرسة الابتدائية يميل لتقويم ذاته من خلال استحسان أقرانه له. كذلك يتوقف مفهوم الطفل عن ذاته إلى حد كبير على استحسان ذويه له، فمثلا الأطفال الذين لا يحترمهم ذوهم لتدني تحصيلهم الدراسي يكون تقييمهم لذواتهم متدنيا أيضا. وبالعكس فالأطفال الذين يماشون المعيار العام في تحصيلهم الدراسي ويتمتعون باحترام ذويهم يكون تقييمهم لذواتهم جيدا (بيديس، إميل خليل ١٧٤: ١٩٩٧).

ويبين العوامل ومزاهرة (٢٠٠٣) أن هذا العامل يظهر أثره في مرحلة الطفولة المتأخرة إذ يتحول المفهوم العياني للذات بالتدرج إلى مفهوم أكثر تجريداً، ويدخل في تكوينه المقارنة بالآخرين، ويبدأ الطفل بإعطاء وصف لذاته عن طريق تحديد موضعها من الآخرين.

ويشير ديكلو (٢٠٠٣) إلى أن الشخص الذي يشعر أنه يشبه الآخر في كل شيء لا يستطيع إدراك هويته الخاصة ولا يعرف ذاته المعرفة الحقة، لذا على الطفل أن يتعرف على ما يميزه عن الآخرين، وعليه أن يعي أنه يملك الملامح البدنية، والذهنية، والاجتماعية الخاصة به وحده، ولا نغفل هنا أن الطفل لابد أن يدرك أنه يشارك الآخرين بعض المهارات والطباع، وهذا الإدراك المتوازن للفروق والتشابهات بالنسبة للآخرين يقوده إلى معرفة جيدة للذات.

ويذهب منداجليو Mendaglio (٢٠٠٢) إلى أن هناك باعشا لدى الفرد ليقيم آراءه وقدراته، وهنا يهتم الأفراد بدقة هذا التقييم، وقد أشار إلى أنه في غياب معايير مستهدفة فإننا نشتغل بمقارنة أنفسنا بالآخرين لتحقيق الباعث للتقييم الذاتي.

ويرى أدلر وتون Adler and Town (١٩٩٠) أن الأشخاص يقومون بتقييم

أفضليتهم بمقارنتها بالآخرين، ونتيجة هذه المقارنة غالبا ما نعتمد على المجموعة المرجعية التي نقارن أنفسنا بها إذ تلعب هذه المجموعات دورا في تشكيل نظرنا لأنفسنا، وهذا في حالة المجموعات أو الأفراد الذين يفوقونا.

والملاحظ هنا أن هذه المقارنة قد توقع الفرد في إشكالية، إذ أنه كلما كبر التماثل بين الذات والآخرين كبرت دقة المعلومات الملتقطة في عملية المقارنة، وهذا يكون له تأثيره السلبي على الفرد في الكثير من الأحيان، ونلجأ أحيانا بدافع التعزيز الذاتي إلى مقارنة أنفسنا بمن هم أقل حظا، وهذا قد يكون له تأثير إيجابي على تطور مفهوم الذات.

الإسناد (العزو)

يقصد بالإسناد الإيضاحات التي يستخدمها الفرد ليبرر بها سلوك الذات وسلوك الآخرين، والإسناد يكون : للشخص نفسه، أو الوضع الذي هو عليه. ففي حالة الإسناد للشخص : الفرد يشرح السلوك بدلالة الخصال الشخصية. وفي حالة الإسناد للوضع : الفرد يشرح السلوك بدلالة سياق محدد (Mendaglio 2002). إن إدراك مفهوم الذات للفرد من منظور الإسناد يتضمن إيجاد التبريرات التي يقدمها الفرد حول سلوكه، وكثيرا ما تتأثر هذه الاستدلالات بالتغذية الراجعة من الآخرين وعمليات المقارنة الاجتماعية، وما يترتب على السلوك سلبا أو إيجابا، فمثلا الخصلة الملازمة لفئة الطلاب منخفضي الإنجاز هي انخفاض تقدير الذات، فهؤلاء الطلاب لا يؤمنون بأنهم قادرين على إنجاز ما تتوقعه منهم أسرهم أو أساتذتهم، ويرتبط بانخفاض تقدير الذات شعورهم بضعف السيطرة الشخصية خلال حياتهم، فهم إذا أخفقوا في مهمة ما فإنهم يعززون ذلك إلى ضعف القدرة، وإذا نجحوا فربما ينسبون ذلك النجاح للحظ، فعملية الإسناد هذه تجعل الطالب لا يبذل جهدا للإنجاز إذا كان هو في الأساس لا يرى علاقة بين المجهود

والمخرجات (الشامسي، عائشة جاسم ٢٠٠٥).

وهذا ما أكدته دراسة مانزوني (Manzoni ٢٠٠٤) والتي بحثت في الأسباب التي يعزو إليها الطلاب نجاحهم أو فشلهم الدراسي، وأجريت هذه الدراسة على عينة تكونت من ١١٥ طالبا من طلاب السنة الثالثة والرابعة بجامعة زغرب في كرواتيا، وبينت في نتائجها أن الطلاب الناجحين يعزون نجاحهم بصورة أكبر إلى العوامل الداخلية كالمثابرة، والالتزام، والتنظيم الجيد، وجودة تحصيل المعرفة، بينما يعزو الطلبة الفاشلون النجاح بصورة أكبر إلى عوامل خارجية تعتمد على المحيط مثل الحظ، والمزاج أثناء الاختبار، والآباء.

ومن خلال استعراض العوامل التي تساهم في تطور مفهوم الذات نجد أن هذه العوامل تلعب دورا مؤثرا على مفهوم الذات كبناء متعدد الأبعاد، إن الذات بناء معرفي يتكون من أفكار الإنسان عن مختلف نواحي شخصيته، فمفهومه عن جسده يمثل الذات البدنية، ومفهومه عن بنائه العقلي يمثل مفهوم الذات المعرفية أو العقلية، ومفهومه عن سلوكه الاجتماعي يمثل الذات الاجتماعية. ويركز علماء النفس الإنساني على بناء الذات عن طريق الخبرات التي تنمو من خلال تفاعل الإنسان مع المحيط الاجتماعي، ويطلقون على العملية الإدراكية في شخصية الإنسان (الذات المدركة) والتي من خلالها تتراكم تلك الخبرات، فيتم بناء الذات ويكوّن الفرد مفهومًا عن ذاته. ولما كانت الذات هي شعور الفرد بكيانه المستمر وهي كما يدركها وهي الهوية الخاصة به وشخصيته فإن فهم الذات يكون عبارة عن تقييم الفرد لنفسه، أو بتعبير آخر هو مجموعة مدركات ومشاعر لدى كل فرد عن نفسه.

وفي منداجليو (Mendaglio ٢٠٠٢) أن مفهوم الذات هو تنظيم أو ترتيب

لإدراكات الشخص لنفسه في أبعاد متعددة هي :

- مفهوم الذات الأكاديمي.
- مفهوم الذات الجسمي.
- مفهوم الذات الاجتماعي.

وهذه الأبعاد ذات طبيعة هرمية متدرجة ومتسلسلة في طبيعتها، وذلك حسب النموذج الذي وضعه شافلسون عام (١٩٧٩) والذي يصف مفهوم الذات على أنه تركيب متعدد الأبعاد ومتدرج حيث يقع الإدراك للذات العامة في القمة، والسلوك الفعلي في القاعدة، وبالتحرك من القمة للقاعدة فإن هذا البناء يزداد في التمايز، وينقسم مفهوم الذات العام - الموجود عند قمة الهرم - إلى شقين من المكونات:

• مفهوم الذات الأكاديمي ويندرج تحته مفهوم الذات المتعلق بكل مادة دراسية.

• مفهوم الذات غير الأكاديمي الذي ينقسم إلى مفهوم الذات الاجتماعي، أو التقبل الاجتماعي من الآخرين والجاذبية الشخصية (Mendaglio ٢٠٠٢).

وقدمت سلوى شرف (٢٠٠٤) تعريفا لمفهوم الذات الاجتماعي بأنه مجموعة المدركات والتصورات التي تحدد الصورة التي يعتقد الفرد أن الآخرين في المجتمع يتصورونها، والتي يمثّلها الفرد من خلال التفاعل الاجتماعي.

وهذا ما نلاحظه من نموذج التنظيم الهرمي لمفهوم الذات، إذ أن المفهوم العام للذات الذي يكونه الفرد عن نفسه ما هو إلا محصلة لعوامل متعددة تنطلق من قاعدة الهرم وتتدرج عبر خبرات الطفل في المنزل والمدرسة والمجتمع بحيث تتشكل لديه مفاهيم فرعية لذاته تتعلق بجسمه، وشخصيته، وعاطفته، وإنجازته، لتجتمع معا وتشكل بالتالي مفهوما عاما للذات لديه.

وخلال مراحل النمو المختلفة يحاول الفرد باستمرار التعرف على ذاته وتحديد معالمها، ويكون ذلك بشكل ملحّ في مرحلة المراهقة، ويستمر بقية الحياة تبعاً لما يحل عليه وعلى بيئته من تغيير، وفكرة الفرد عن نفسه تتميز بالفرد، ولكنها عرضة للتعديل بتأثير الظروف البيئية والاجتماعية التي تحيط به، وبوجهة نظر الآخرين عنه، فالفرد قد يرى نفسه بصورة إيجابية أحياناً، وبصورة سلبية أخرى، إلا أنه بصفة عامة له تصور شبه ثابت عن ذاته.

من المسلم به أنه حين نتحدث عن مفهوم الذات وتطوره كمفهوم متعدد الأبعاد فإننا نتطرق لجانب متعلق بالاعتقادات التي يحملها الفرد عن نفسه في كافة مجالات النمو.

أهمية معرفة الذات والشعور بالرضا عنها

يلعب مفهوم الذات الإيجابي دوراً مهماً في حياة الفرد، إذ يشير دويدار (١٩٩٢) إلى أن مفهوم الذات الإيجابي يعتبر من العوامل الأساسية للحياة الناجحة، ولتحقيق التوافق السليم للفرد فإن مفهومه عن ذاته يحدد إلى درجة كبيرة سلوكه واتجاهاته ومحور تفكيره ودافعيته.

ويبين كل من فيرر وفوجيت Ferrer and Fugate (٢٠٠٣) أن لمفهوم الذات دوراً فيما يتعلق باتجاهات الفرد وأهدافه في الحياة، ويتمثل ذلك في الدور الذي يقوم به مفهوم الذات في توافق الفرد مع هذه الاتجاهات أو تعديلها أو تغييرها من ناحية أخرى، أما بالنسبة للطفل فإن مفهومه عن ذاته يؤثر على كيفية رؤيته وتفاعله مع الأحداث، فمفهوم الذات الإيجابي هو أساس للتطور الإيجابي في مراحل العمر المختلفة، فالطفل الذي يتمتع بمفهوم ذات إيجابي يتميز بما يلي:

- يرى نفسه أنه جدير بالحب وأنه ذو قيمة.
- يكون قادراً على التحصيل مقابل الجهد الذي يبذله، وبالتالي يستطيع تحقيق إنجاز أفضل في المدرسة.
- يكون قادراً على وضع أهداف لنفسه واتخاذ القرارات.

- يكون مهياً أكثر لتعلم أشياء جديدة وممارسة أنشطة جديدة.
- له علاقات جيدة مع عائلته وأصدقائه.
- يستطيع السيطرة على سلوكه والتواصل مع الآخرين.

أهمية مفهوم الذات عند الطفل

نضيف إلى ماسبق، أن أهمية بناء الشخصية أو تطوير ذات الطفل، تأتي عن طريق تأسيس مفهوم ذات قوي لجميع الأبعاد المتعلقة بالذات للوصول إلى تقدير عال للذات يدفعها إلى الإنجاز وصولاً إلى الرضا عن النفس، فالأطفال الذين يشعرون بذلك بإمكانهم أداء الأعمال جيداً، ويعتمد ذلك على نجاح الأسرة في وضع أساس لبناء شخصية الابن منذ الصغر.

ويبدأ الطفل على التعرف على ذاته الجسدية واكتشافها تدريجياً، وتتطور لديه الذات مع نمو الشخصية، فالذات (the self) هي لب الشخصية (personality)، إلا أن الطفل يدرك وجود العالم الخارجي والآخرين قبل إدراكه لذاته، وبعد ذلك يتعرف على أن له خصوصيات وممتلكات وأن له اسماً يتردد على سمعه باستمرار، فهوية الذات (self-identification) هي أحد المدركات التي تتبلور عند الطفل في أولى مراحل حياته (الحفني، عبد المنعم - ١ - ٤٨٥: ٢٠٠٣).

ويعتبر تعزيز مفهوم الذات من الاحتياجات المهمة التي يجب إشباعها لدى الطفل، والذي يبدأ معه، ببداية حياته، حيث يولد الطفل في وسط اجتماعي تربطه بالآخرين علاقات تبادلية وتفاعلية تتطور بمرور الزمن، ومن خلال خبرته التي يكتسبها من اتصاله بالآخرين تنشأ لديه القدرة على إدراك معالم فرديته التي يحرص على تثبيت أركانها، ومهما بلغ انصهار الطفل في الكيان الاجتماعي فإن معالم شخصيته يبقى لها الحضور الذي يستحق الرعاية والتنمية، فذات الطفل التي تحمل عناصر قواها منذ الولادة تكون في نفس الوقت على صلة وثيقة بخبرات الحياة، والذات عند الطفل تشكل عالمه الخاص وما يتضمنه من أحاسيس وكيان

وجداني عام وانفعالات وآمال ومخاوف وخيالات (الجسماني، عبد العلي ١٩٩٤:٣٥).

ومن الأبعاد الأساسية المرتبطة بمفهوم الذات يأتي تقدير الذات أو اعتبار الذات (Self-Esteem) ليمثل الجانب الوجداني من الشخصية (مفهوم الذات يمثل الجانب المعرفي من الشخصية) ويشير تقدير الذات عند الطفل إلى مدى إعجابه بنفسه، إضافة إلى مدى ما يعطيها من قيمة وأهمية (المطوع، روضة ١٩٩٨:٢٥). وعموماً، يمكن القول بأن تقدير الذات يعني اعتقاد الفرد عن نفسه من حيث إمكاناته ومنجزاته واحترامه لذاته ومواطن قوته وضعفه وعلاقاته بالآخرين، ومدى ما يتمتع به من الاستقلال والاعتماد على النفس، وقد يكون احترام الشخص لذاته عالياً أو منخفضاً (البخاري، إسماعيل أمين ٢٠٠٨ Colman, Andrew 2006: 79).

ويتكون تقدير الذات عند الطفل منذ بدء حياته نتيجة التراكمات الوجدانية التي يتعرض لها، فعندما يتعرض لتجارب سارة ينعكس ذلك إيجابياً على شخصيته، وبالعكس فإذا كانت هذه التجارب قاسية ومؤلمة (مثلاً اعتداء بدني أو نفسي أو جنسي متكرر أو حرمان أو إهمال عاطفي) يتكون لدى الطفل انطباع سلبي كبير عن ذاته مصاحباً بمشاعر الخوف والخجل والجبن والتردد، مع الكآبة وعدم الثقة في النفس أو الآخرين، وانعدام الدافعية والفشل المتكرر في أي أمر يقدم عليه.

ويعتبر رضا الطفل عن ذاته من أهم مقومات التقدير لها. فإن الأطفال الذين يشعرون بالرضا عن أنفسهم يعرفون تماماً ما يستطيعون وما لا يستطيعون عمله، ويأمنون بمكانهم معاشة هذه الحقيقة، وعليه يجب أن يتحلى الأطفال بهذا الشعور عن

أنفسهم قبل شعورهم برضا الآخرين. وعندما تتأثر ذات الطفل سلباً، قد يساعد في اصلاح هذا الخلل إعداد برنامج جيد لمعرفة الذات وتقديرها، وخاصة لمن هم دون سن المدرسة، وذلك بهدف مساعدة الأطفال على اكتساب مفهوم جيد للذات وتنمية الشعور بتقدير الذات، إلا أن التربية السليمة بإمكانها اكساب الطفل مفهومها للذات لا يعتريه الخلل.

وجدير بالذكر، أن الأطفال، ومنذ مولدهم، يتعلمون إرضاء أنفسهم وذلك عن طريق المعاملة التي يتلقونها من المحيطين، فالطريقة التي تحمل بها الأم وليدها بين ذراعيها تجعل الوليد يشعر بالرضا والسرور.

والوليد الذي يحمل ويضم بحنان ودفء يتعلم الشعور بالهناء والحب حتى مجرد الطرق التي تكون باللمس في بعض أجزاء جسمه والاقتراب منه تكون بمثابة الأحاسيس التي يتعلم من خلالها قبل أن يتعلم الكلمات ويفهم معناها، وعندما يكبر الوليد ليكون طفلاً صغيراً يظل محتفظاً بما اكتسب وتعلم للرضا عن نفسه، وعندما يشجع لتركه (المشاية) لكي يحاول الخطو بمفرده أو القيام بمحاولاته لتناول الغذاء بنفسه، إنما يجعل ذلك فيه شعوراً جديداً هو الرضا عن النفس و عما يقوم به من أعمال (الشامسي، عائشة ٢٠١٠). وهكذا نجد أن ذات الطفل، وما تكون عليه سلباً أو إيجاباً، ما هي الإنتاج ما تقوم به الأسرة من عناية.

فمن ناحية أخرى يمكن أن يكون للأسرة دوراً سلبياً على تشكيل مفهوم الذات عند الطفل. يقول إسماعيل أيمن البخاري: إن أفراد الأسرة ربما يساهمون بدون أن يدروا في تكوين الانطباع السلبي عند الطفل نحو نفسه، وذلك من خلال تعاملهم معه، فبعض الآباء يلجؤون إلى لوم و نعت أبنائهم بصفات سيئة ويعمدون إلى ضربهم وإذلالهم لأقل خطأ معتقدين أن هذا الأسلوب هو الأنجح في التربية، ولكنهم لا يدرون أن الاستمرار في تصرفهم هذا يعوق بناء شخصية الطفل السليمة

ويترك لديه انطباعاً مستمراً بأنه غير محبوب ولا يصلح لشيء وأنه فاشل. فأسوأ شيء يمكن أن يفعله أب هو أن يعمد بصورة متكررة إلى ضرب وإهانة الابن وفي نفس الوقت نعتة بصفات قاسية، فتكرار هذه النعوت عندما يكون الطفل في حالة نفسية سيئة تنطبع ويؤمن بها عقله الباطن الذي يعمل على أن يكون الصبي كما نعت به تماماً مستقبلاً.

نمو الذات ومفهومها في فترة المراهقة بصفة عامة

كما هو الحال في سنوات الطفولة، فإن مرحلة المراهقة يمكن أن تترك بصماتها أيضاً على مفهوم الذات عند الأبناء، ففي هذه المرحلة يحدث للابن تغيرات تشمل النمو الجسمي والعقلي والانفعالي والاجتماعي فتؤثر هذه التغيرات على الشخصية بصفة عامة. وفي دراسة تتبعية أجراها بارك Park (٢٠٠٣) لاختبار تأثير مفهوم الذات في سنوات المراهقة على الصحة النفسية والجسدية في فترة البلوغ، وجد أن الضعف في مفهوم الذات لدى المراهقين الصغار يرتبط بحدوث الاكتئاب خلال السنوات الست التالية، وهو أيضاً يتنبأ بخمول القدرة الجسدية لدى الأولاد وظهور البدانة، بينما مفهوم الذات القوي له تأثير إيجابي طويل المدى على الوعي الصحي الذاتي لدى الفتيات.

وفيما يلي يشير حامد زهران (٢٠٠٣) إلى نمو الذات في فترة المراهقة ومفهومها:

- يزداد وعي المراهق بذاته ويستطيع تقييمها بدقة، وبالتالي فإن الذات القوية النامية للمراهق تمكنه من التأثير الإيجابي في بيئته وفي تبنيه للمواقف الاجتماعية.
- يؤثر كل من البلوغ والنضج الجسمي في درجة اتجاه المراهق نحو ذاته والآخرين.

- تثبت الدراسات وجود علاقة إيجابية بين تقدير الجسم وتقدير الذات لدى الشباب. (للمزيد حول هذا الموضوع انظر: فوزي، إيمان ومنيب، تهاني (٢٠٠٣).
- إن التغيرات الداخلية والخارجية التي تواجه الأبناء في حياتهم وتؤدي إلى عدم استقرار مفهوم الذات لديهم يمكن تعديلها وإعادة تنظيمها، فمع النمو يزداد تكامل الذات وفي مرحلة المراهقة يمكن بناء الذات المثالية.
- يتأثر مفهوم الذات عند الأبناء من خلال تفاعلهم مع الوالدين والمعلمين والرفاق.
- عدم إدراك المراهق الفروق الفردية في النضج بينه وبين أقرانه الذين سبقوه ومقارنته بهم يؤثر سلباً على مفهومه لذاته.
- ينمو مع الفرد منذ طفولته مفهوم آخر للذات يعرف بـ « مفهوم الذات الخاص » Private Self- Concept، وهو الجزء الشعوري من خبرات الذات التي لا يستسيغها المجتمع، وهي خبرات محرمة أو مخجلة أو بغیضة أو مؤلمة لا يجوز البوح بها، هذه الخبرات عندما يتعرض لها المراهق ويشعر بها دون أن يجرؤ على البوح بها تستمر معه لتشكل مفهوم الذات الخاص لديه، وبالتالي تهدد استقراره وقد تؤدي إلى عدم التوافق النفسي لديه (زهران، حامد ٤٣٨: ٢٠٠٣).
- ونستنتج من ذلك أنه كلما كان مفهوم الذات قويا عند الفرد كان أكثر اقتراباً لاكتسابه الشخصية المتكاملة، وكلما ضعفت العلاقة بينهما أصبحت الشخصية مهددة بالأمراض النفسية.

